كل شر ورائد كل نحس فنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا بل منه تشتت آرائنا حتى في ديننا ومنه فقد احساسنا ومنه كل مانحن فيه وأو نتوقع اتيا سنوافيه. فهذه فطرتنا لانقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم وتجارتنا قديم فلا ينقصنا عن الامم الحية غير القوة المالية التي أصبحت لا تحصل الا بالعلوم والفنون العالية وهذه لا تحصل الا بالمال الطائل فوقعنا في مشكل الدور وعسى أن تهتدي لفكه سبيلا والا فيحيق بنا ناموس فناء الضعيف في القوى وفناء الجاهل في العالم

ومن أعظم أسباب فقر الامة ان شريعتنا مبنية على ان في أموال الاغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم فيؤخذ من الاغنياء ويوزع على الفقراء وهذه الحكومات الاسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبي الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للاغنياء وتحابي بها المسرفين والسفهاء. (للاجتماع بقية)

باب التربية والتعليم

﴿ الكتاب الثالث «من أميل القرن التاسع عشر» في اليافع* ﴾

شذرات مقتطفة من جريدة الاهرام - تحريراً بمرازيون في سنة ١٨٩٦ الداخلة في سنة ١٨٩٦

الشذرة الاولى

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شؤون حياتي كلها

ولقد وجدتها هي بعينها(١) ولما تلاقينا كنا كأننا لم نفترق في حياتنا فان النوى لم تغير شيئاً من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلبينا على ما كانا عليه من الارتباط والاتحاد وغاية ما حدث اني أراني الآن آنس مني في جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها وجمال معاملتها نعم انها لم تبق طفلة كما عهدتها ولكنها لم تأخذ من مرور

(*) الباب الأول من هذا الكتاب في الأم والباب الثاني في الولد وقد تقدما وهذا الباب الثالث في تربية الغلام اليافع (١) يريد زوجته أم أميل

الاعوام وكرور الايام الا ما يزيد المرأة في القلوب محبة وفي النفوس تأثيراً : كأن روحها وملامح وجهها تكملت وتطهرت بادائها فروض الامومة المقدسة

كنت أوشكت ان أفنط من معرفتي لولدي ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام ان الذين هم اكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولاداً أو رزقوهم وحرموا من رؤيتهم وربما كان هذا هو الباعث لهم على الاهتمام بالتربية وجعل البحث في شؤنها غايتهم ليؤدوا بذلك ما فرضه الله عليهم منها بنوع آخر من الاداء

فليت شعري بماذا استحققت أن أكون أسعد من هؤلاء مع كونهم أجدر مني بالسعادة

ما أشدني حنوّاً وتأثراً عند قبيل ولدي اياي وما أعظم زهوي وإعجابي به عند ما آخذ بيده وأتنزه معه في المزارع وان الدنيا لترى في عيني جديدة وهو معي كأن لم أرها منذ سبع سنين . ولا جرم ان الانسان لا يبصر وهو رهين السجن محروم من الحرية فكل ما كنت أراه من أشجار وصخور عمرت عمر الدنيا القديمة كان يخيّل الي انه لم يخلق الا بالامس

خطر في ذهني ساعة خاطر العود الى فرانسا ولكن الف مانع — وان شئت فقل الف وهم — قد يحول بين المرء وبين معيشته في وطنه وما أدراك ان من هذه الموانع ما يعتريني من الألم المضّ الذي لا أستطيع التعبير عنه اذا رأيت أمة عظيمة عهدتها حرة قد أصبحت في قبضة حاكم وجميع ما يحصل في هذا الوطن لا يقل عن ذلك ايلاماً للقلب ولا ازهاقاً للنفس

يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من الواجب عليهم لأنفسهم ولأوطانهم أن يخدموا هذه الاوطان وهم بمعزل عنها فقتل هؤلاء هم فيما أرى أشدُّ حباً لها لأنهم سواء قربوا منها أم بعدوا عنها يحيون بنفحاتها ويقضون بتجاهد انهما في سبيل الخير وبما لها من الآمال في الوصول اليه . جرحهم في صميم أفئدتهم ما مس أممهم من القروح وان كان يبدو من حال الامة عدم شعورها بألمها كأن في مرور الزمن عليها والاعتياد على احتمالها من قوة التأثير ما يكفي لانعدامها جميعاً . مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب والذي يلومون الناس وحوادث الدهر ولكن اذا حاول مجادل امامهم أن ينقص من كرامة فرانسا وبحط من شأنها استشاطوا غضباً وبيّض الدم في عروقهم . ذلك أن هذه القطعة من الارض التي تنازلوا عن سكناها مختارين قد تغلغل حبها في أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم فتراهم يبذلون الوطن نفسه في اعزاز شأن المنفى الذي قام في أذهانهم منه ويفضلون الحكم على أنفسهم بالبعد عنه على رؤيتهم اياه مهيناً ذليلا

كأني بسائل يقول : لماذا اتخذت هذه العادة وهي تقييد أفكارك ومذكراتك كل يوم بحسب المصادفة والاتفاق فاجيبه ان هذا معظم ايام معيشتي في السجن اشغله للناس لأني لم يكن لي فيه أنيس أطارحه الحديث كنت اكتب كأني أراسل نفسي . اه

الشذرة الثانية

(تعليم المسميات قبل الاسماء)

لم تُخلِفْ طريقتها في تربية « اميل » أملا من آمالي فتحقق على ما هي بسبيله من تهذيبه وتثقيفه بما تقدمه له من الأسى وبما توجهه الى نفسه . من الثقة بها . على أننا من عهد أن انعم الله علينا باللقاء رأينا من المفيد أن نقسم العمل بيننا لأن التعليم — ان لم اكن غالياً في حكمي — هو من وظائف الوالد غالباً واما التربية فانها من أعمال الوالدة وان أردت ان تعلم اين نحن من قيام كل منا بعمله فاقول :

لما يدرسْ « أميل » شيئاً درساً منتظماً فهو انما لقف دروسه الاولى في علم التاريخ الطبيعي متفرقة على نحو من الاتفاق وذلك بمعاينة ما كان يجده كل يوم على شاطئ البحر من أنواع المحار والصدف . ثم اني أمكنته من النظر بالمنظار المعظم (الميكرسكوب) وهو آلة شائعة الاستعمال جداً عندنا محركا أجزاءه بنفسي فيكبر له بعض عجائب المخلوقات غير المتناهية في الصغر واريه بالمرقب (التليسكوب) وهو آلة أرصد بها النجوم ليلا عجائب المخلوقات غير المتناهية في الكبر . وقد ملأنا اناء من الزجاج بالماء المالح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكا وكنا نجدد ماءه كل ثمانية أيام ومنه تلقى « أميل » كل ما عرفه فيما أرى من علم حياة الحيوانات التي تعيش في جوف البحر . وفي بعض الاسابيع أكثر بعشرة منه بعض شغفه سبقة حسداً في الاكياء والبلاية تزيد على جهده إياي حتى انه بعض الادراك تأثير بعض الاجسام الفطرية في بعض . ورأني يوماً أضع مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الاتقان في شيء يدالي منه انه ادرك استعمالها في الجملة لأني رأيته يريد محاكاتها . جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن

لابد ان أكون انا و « اميل » تابعين في التعليم لمذهب ارسطاليس لان اغلب درسنا يحصل في وقت التنزه فاني أدع لامور الكون وحوادثه تنبه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير الاان يكون اجابة عما يوجه الي من الاسئلة مجتهداً في أن يكون الشرح واضحاً والبيان وافياً . وقد عرفت من محاورته ان الوسيلة الى اصغائه الي هي

تتبع مسألة افكاره عند محادثته وان كثيراً ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الاطفال يبالغون لهم في البيان ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة الى ان يثبتوا بذلك لانفسهم انهم على معارف واسعة وعلوم جمة . انا لا اعلم « اميل » شيئاً بل اني أتعلم منه فموضاً عن كوني أعلمه طريقتي في النظر أجتهد في معرفة طريقته وتميزها وبالايميل الى معرفته بحال أجهله مثله او اتجاهله . نعم ان هذه الطريقة ليس من شأنها ان تملي قدر الاستاذ في نظر تلميذه وانه لابد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن بعض شهواته ولكن ماهو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الاطفال ليس هو لا كرقم الالفاظ على الرمل

ملكة البحث عند الطفل هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتياد والتمرين فان الشوق الى معرفة الاشياء يتولد في الانسان ولا يولد معه وانما يكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها . ان لي أن اعين نصب « اميل » والتفاته بأن أريه مالا يراه في الاشياء لاول نظر مالها غير انه في هذه الحالة يجب ان يكون هو مصدر الميل الى ذلك أيضاً وان يكون صدور هذا الميل منه فطريا . ثم ان الاطفال في الجملة مدفوعون جداً بسائق الطبع الى الاكثار من السؤال فرأي أن التعجيل لهم بالجواب قبل السؤال وتجاوز حدود ما يطلبون معرفته مما تخبو به نار هذا الاستعداد المبارك لان ذلك يفضي بكثيرمنهم الى التزام السكوت ليكفوا أنفسهم مؤونة سآمة الدرس وطوله . اه

﴿ قوانين التعليم الرسمي والجمعية العمومية ﴾

« النبذة الثانية »

تقدم في الجزء الماضي ملخص ما دار بين مفتي الديار المصرية وناظر المعارف من المناقشة والمراجعة في اقتراح عرض قوانين التعليم في مدارس الحكومة على مجلس شورى القوانين كسائر قوانين الحكومة ونذكر في هذا الجزء ملخص ما دار في الجمعية بين الناظر والشيخ علي يوسف في ذلك مع بيان رأينا فيه ثم ننقد القانون فنقول

(الشيخ علي) : « الضمانات » (١) التي ذكرها سعادة ناظر المعارف انما هي كافية في التغييرات الادارية كتحديد أوقات الدروس وحصص المدرسين وأما القواعد

(١) رأى القراء في النبذة الأولى أننا كنا نضع كلمة « الضمانة » و « الضمانات » بين علامات ممزة كما هنا اشارة الى معناها الذي يخالف ما استعملت فيه وهو العرض فكان ناظر المعارف يقول ان لقوانين التعليم في نظارته خمسة أمراض ونحن نقول انها أكثر

الكلية المتعلقة بالعلوم من حيث ترتيبها في التعليم واللغة التي تعلم بها فربما لا يصح تغيير قوانينها في أقل من عشرين سنة مثلا لذلك يجب الضمان . والتعليم باللغة الاجنبية معناه نقل أشخاص الى العلم وأما التعليم بلغة الأمة فهو نقل العلم الى الأمة فيسهل على الطالب معه أن ينفع بيته بعلمه وبما يجيء به من كتب التعليم . وقد نشأ عن التعليم باللغة الاجنبية قلة التآليف بالعربية وعدم وجود الأساتذة الاكفاء في المدارس الحرة ولم نر من ذلك « ضمانات » ناظر المعارف . فالقوانين العمومية يجب عرضها على مجلس شورى القوانين اذ لا يكفي فيها نظر الحكومة وحدها

(الناظر) ان الطرق المتبعة في التعليم ما وضعت الا بعد تجارب شتى بمعنى ان هذا العلم الذي تبين ان تعليمه بالعربية أنفع يكون تعليمه بها والعكس بالعكس اذ المدار في ذلك على الكتب والمدرسين والاقرب للترقي . وما بيته من « الضمانات » وغيرها يتضح ان وضع « البروجرامات » يتبع فيه أحسن الطرق وأفضلها اهـ كما كتب

(الشيخ) ذلك يراد به الاسهل في التعليم والذي نريده هو نفع الأمة وقد كان منذ عشر سنين تؤلف كتب في الطب والطبيعة وغيرها من العلوم فيأتي بها التلميذ فيستفيد منها أبوه وأمه ولا شيء من ذلك الآن لأن التعليم والتأليف باللغة الاجنبية فيجب أن يكون التعليم الوسط بلغة البلاد ويصح أن يكون في المدارس العالية باللغة الاجنبية

(الناظر) يترتب على هذا جعل التعليم ناقصا . وانتشار العلم في البيوت لا يكون بوجود الكتب في أيدي أفرادها اذ لا يفهم الكتاب الا من كانت عنده مبادي العلوم

وعند ما رأى أعضاء الجمعية ان الناظر يعيد كلامه ويحتج « بضماناته » كلما البحث الجمعية بوجوب اطلاع مجلس الشورى على قوانين التعليم قال حسن بك فهمي كور ان أحسن ضمان هو ارسال قوانين التعليم لمجلس الشورى وأمر الرئيس بأخذ الآراء « فقرر بأغلب الآراء » طلب ذلك من الحكومة . ولا أدري هل كان في المخالفين أحد غير ناظر المعارف ؟ ان كان فلعله من بعض الموظفين الذين يرون موافقة الناظر تأييداً لحزب الحكومة وان كانت المصلحة واحدة والشورى من الحكومة

أما الجواب الأول للناظر فقد أحسن الشيخ علي في نقضه بقدر ما يسمح له المجلس الرسمي ونزيده ايضاحاً بأن هذا التعليم الذي وصفه الناظر بأنه أنفع وأحسن وأفضل قد خالفت النظارة فيه ما اتفقت عليه الأمم الأوربية كلها وفي مقدمتهم الانكليز . ذلك أن التعليم الابتدائي في أوربا لا يكون الا بلغة البلاد لأن حياة الامة بأسرها

وتعلم لغة أخرى لأجل المزيد في العلم كتعلم الانكليز لغة الألمان هو من الكماليات التي يجب أن تكون بعد الضروريات . فهل وصل نظار مدارس معارفنا ومفتشوها — ان كان قانون التعليم برأيهم — الى ما لم يصل اليه فلاسفة اوربا وأساتذتها في علم التربية والتعليم ؟؟

فان قال الناظر اذا ثبت ان تعلم الطبيعيات مثلاً أسهل باللغة الانكليزية منه باللغة العربية فكيف نتنكب الطريق السهل ونسير في الحزون الوعرة ؟ نقول له بعد التسليم : وهل تعدل عن الانكليزية الى التركية او اليابانية اذا ثبت عندك ان التعليم بها أسهل والتحصيل أقرب ؟ وانما قلنا أسهل وأقرب ولم نقل « أنفع » كما قال الناظر لأن الأنفعية لا شبهة عليها الا اذا فسرت بالسهولة وقرب التحصيل اذ لا يمكن ان يقول عاقل اني أسعى بمحو لغة أمتي واستبدال لغة أخرى بها لمنفعة من المنافع وأي نفع في الدنيا يوازي ضرر اهمال لغة الأمة التي هي من أقوى مقوماتها أو هي اقواها في نظر الاكثرين

وأما الجواب الثاني من أجوبة الناظر فأمثل ناقض له ما فعلته الجمعية من ترك المناقشة بالمكابرة والاصرار على ان الضمان على التعليم لا يكون للأمة الا بعرض قوانينه على مجلس الشورى والجزم بطلب ذلك من الحكومة . وماذا عسى أن يقال لمن يقول ان التعليم الابتدائي بلغة الأمة يكون ناقصاً وجميع الأمم الحية عليه كأن الكمال لم يوجد الا في معارف مصر التي لا أثر لمعارفها يذكر بالنسبة الى سائر الامم . وماذا عسى أن يقال لمن يدعي أن انتشار الكتب العلمية في الأمة لا تأثير له في منفعة البيوت وترقي أفرادها ؟ أليس تحدث التلامذة في بيوتهم ومذاكراتهم في المسائل العلمية بينهم مما يجعل الاصطلاحات العلمية مألوفة في البيوت لكثرة تداولها المسامع ؟ أليس الآباء والأمهات الذين تلقوا شيئاً من مبادئ العلوم وقفت عليهم شؤون المعيشة بعدم اتمام تعليمهم يتفعون بالكتب المؤلفة اذا كانت بلغتهم ؟ بلى وانا نعود الى الكلام في قانون التعليم فنقول : ان في هذا القانون (البروجرام) عيوباً وتقصيراً نسرد ما يظهر لنا منها بالاختصار على ترتيب القانون وهو

(١) كون القرآن لا يدرس الا في السنتين الأولى والثانية وكون الذي يقرأ منه جزأين فقط . والأمة ترغب في اقراء أولادها القرآن كله لما في قراءته من تقويم اللسان وتعويده على الفصاحة في النطق والاستعانة على الكتابة والخطابة ولكونه أصل الدين والوسيلة العظمى لكمال من يفهمه . ولم تعن « الفضائل الخمس » عن

هذا النقص شيئاً »

(٢) كون تعليم الدين والتهذيب في أثناء سنتين فقط مع انه يجب أن يكون ذلك موزعاً على جميع السنين لأن الدين والتهذيب هما المقصود الأهم من التعليم ومن لم يتمكن منهما يكون خاسراً في حياته وان تعلم جميع الفنون الأخرى . ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٣) كون الوقت المخصص لتعليم الدين والتهذيب معاً ساعة واحدة في الاسبوع مع ان اللغة الاجنبية التي تعلم من السنة الاولى الابتدائية الى آخر يوم من أيام التعليم العالي لها سبع ساعات في الاسبوع من السنتين الاولين . فالساعات المقررة في القانون لتعليم علوم الدين وعلم التهذيب ٣٦ ساعة في السنة و٧٢ ساعة في مدة الدراسة كلها وتقتال منها أيام الاعياد والمواسم ماتقتال . فالمدة نحو ثلاثة أيام وهي لاتكفي لتعليم الاكل . فهل تكفي ببركة « الضمانات الخمس » لمعرفة الله وما اوجبه على عباده من أصول الايمان وتكليف الاخلاق وكيفية العبادات مع التهذيب المدني السنيوي الذي نوه به ذلك القانون . هذا اكبر عيب ونقص في نظام المعارف ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٤) كون علم الدين لا شأن له في درجات ترقي التلامذة في الامتحان المعبر عنها بالنمر . فلو فرضنا ان تلميذاً بلغ في فهم الدين ومعرفة احكامه مبلغ الأئمة وكان مساوياً لآخر في سائر العلوم فان هذه المعرفة لا ترفعه عنه درجة واحدة فان زاد ذلك الآخر درجة واحدة في الخط الافرنجي مثلا فانه يرتفع بذلك ويتقدم على ذلك الامام الديني الجليل . ومن لاحظ ان التلامذة لايجتهدون الا لأجل السبق في الامتحان وعلم ان الدين لا مجال فيه للسبق لأنه لا درجة له علم ان التقارير متعمدة اهمال الدين أو جاهلة منزلته ومكانته وهذا نقص فاحش في قانون التعليم ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٥) كون المسائل التي يبتدأ بها في تعليم الدين تملو على عقول المبتدئين وهي كما في الصفحة ١٢ من القانون « احتياج الانسان الى الدين — بيان الفوائد المترتبة على التمسك به — بيان أنه ليس قاصراً على انواع العبادات بل هو مشتمل على مايلزم الانسان من المعاملات وغيرها ويرشده الى طريق المجد والشرف في الدنيا والآخرة — أول ما أوجبه الدين — مايجب في حقه تعالى ومايستحيل ومايجوز — الحكمة في ارسال الرسل — مايجب في حقهم عليهم الصلاة والسلام ومايستحيل ومايجوز —

نبيه صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه وأمه »

ولا شك ان هذه المسائل يتوقف فهمها على معرفة الاحكام العقلية والالمام بعلم الاجتماع فابتداء التعليم بها نقص . واذا فرضنا ان تلامذة السنة الثالثة الذين لم يكونوا تعلموا من الدين شيئاً مستعدون لفهم مقدمات هذه المسائل ثم لفهمها ثم فرضنا أنهم يعلمون المقدمات فهل يقدر المعلمون على تعليم ذلك كله مع علم التهذيب في ست وثلاثين ساعة وهو الوقت المعين لدرس هذه الاشياء كما تقدم ؟ اللهم ان هذا مالا يستطيع أن يتصوره عاقل وانه لنقص فاحش وخلل فاضح في قانون تعليم المعارف ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٦) كون هذه المسائل غير محيطة بالعقائد الدينية فهناك مسائل أخرى تجب معرفتها وليس بعد هذه السنة تعليم للعقائد وهذا نقص ضار منتقد ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً آخر

(٧) كون الكتاب الذي تعلم به هذه العقائد وما معها ليس مؤلفاً على الوجه الذي يؤدي الى الغاية المذكورة في قانون التعليم قبل تلك المسائل التي ذكرناها ثم ان أثر تلك الغاية لم يظهر في تلامذة مدرسة من المدارس كلهم أو جلهم فنقول ان المدار على المعلمين في الوصول اليها وهذا اهمال عظيم ونقص محسوس ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٨) كون قسم الاخلاق الدينية لا وجود له في تعليم مدارس الحكومة وهذا نقص عظيم ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(٩) كون علم الحلال والحرام مهملا لا وجود له في التعليم الديني وهذا نقص قبيح والغاية من تعليم الدين لا تتم الا به ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً

(١٠) كون مسائل العبادات التي تدرس في السنة الرابعة غير كافية وغير مؤدية الى الغاية المطلوبة وكون الوقت المخصص لتعلم العبادة غير كاف وهذه أنواع من النقص والخلل جعلناها واحدة لأنه تقدم في قسم العقائد نظيرها . ولم تغن « الضمانات الخمس » عن هذا النقص شيئاً . وقد طال الكلام في انتقاد تعليم القسم الديني ومن بين لنا خطأ في شيء منه فاننا نرجع عنه لان قصدنا الاصلاح لا اظهار العيوب . وسنتكلم عن النقص في سائر الاقسام فيما يأتي ان شاء الله تعالى